

فضائل الملكة فيكتوريا

يظن كثيرون ممن لا يرون للمرأة فضلاً ولا يعترفون لها بمزية عقل وحكمة ان الملكات حين يتولين لا يكن مالكات الا بالاسم فقط وان كل ما يجري من سياسة وعمل فانه يكون بأمر الرجال من وزراء وسواهم ولكن الحقيقة ان ليس كل ذلك بصحيح وانه اذا صح فهو واقع على الرجال الملوك ايضاً ولا سيما في هذه الايام حيث لا حكم الا للشورى ولا رأي الا للجهور

الا انه قد ورد عن ملكة انكلترا رحمها الله انها كانت ذات تأثير عظيم في ملكها وذات فضل عظيم على كل شعبها وان ذلك قد صدر عنها بخصوصها وتم باجتهادها والحاكم بطابعه . ولقد كان في جملة ما ذكره عن فضلها الذاتي الذي نفعت به بنات جنسها اجل نفع ان العادة كانت جارية قبل ملكها ان البنات يشتغلن بالمعادن ويستخرجن الفحم الحجري وهو عمل من اشق الاعمال واشدها خطراً حتى على شداد الرجال فان النساء كن ينزلن الى اعماق المعادن مئات من الاقدام وهن في حالة يرثى لها من الذل والشقاء والتعب فلما توات الملكة امرت بابطال هذه العادة وقاومتها بكل جهدها حتى منعت النساء عن الاشتغال باعمال الرجال الشاقة وبذلك نقلت المرأة الفقيرة في بلادها من جحيم الفحم الى نعيم الغزل والنسيج

ولقد كانت انكلترا معتادة ان ترسل المجرمين وارباب الذنوب الطائلة الى استراليا وتسمانيا فكان بذلك مضايقة شديدة لتلك المستعمرات ولكن لما حكمت الملكة اشارت بابطال هذه العادة وقررت استبدال النفي بالاشتغال

الشاقة في نفس انكلترا وهو عمل كان منه ان الحكومة وفرت لها مبلغ ١٥ مليون جنيه من نفقة الابنية والاعمال العامة التي قام بها اولئك المجرمون كما انها منعت نقل المفاسد الى تلك الاصقاع الحديثة العهد بالمدينة والتهديب

وقد كان مما فعلته ايضاً منعها شراء الوظائف العسكرية فان هذه الوظائف كانت تجارة من قبل وكان اقل جندي ذي مال يستطيع ان يكون ضابطاً عظيماً اذا اشترى تلك الرتبة بماله الا ان منع هذه العادة كان صعباً جداً لان الجنود كانوا قد القوها دهرأ طويلاً اما هي فلم تنفك عن الاجاجه والالماح حتى ابطالها بالرغم عن كل الوزراء دون ان تحتاج الى اصدار لائحة مصدق عليها منهم وقد كان هذا بحيلة ابتدعها لها المستر غلادستون وهي قوله ان هذه العادة لما لم تكن جارية من قبل باللائحة حكومة بل بأمر ملك فلذلك لا يجب ان تمنع باللائحة بل يكفي لها امر ملك وعلى هذا امتنعت تلك العادة الذميمة واضطر الوزراء ان يصدروا اللائحة بمنعها لما وجدوا انفسهم مغلوبين وكان كل ذلك بفضل الملكة وحدها

ولقد كان لطريقة الانتخاب اثر عظيم من عنايتها وجهدها فان تلك الطريقة كانت جارية فيما مضى على ان يجتمع الناس جماهير يزعم بعضهم بعضاً وهم ينتخبون النواب باصواتهم العالية وكان يجري في اثناء ذلك شيء كثير من الرشوة التي تجري الان عند بعض الممالك المقصرة ولكن الملكة ابطأت كل هذه الحالات الشائنة الفاسدة وصار الانتخاب يتم بالكتابة دون ان يدري احد بنية احد واختيار منتخب

اما تصدقها على الفقراء فقد كان متصلاً على الدوام وقد حسب ما تنفقه كل سنة على المعوزين من راتبها فكان ١٥ الف جنيه وقد دامت على انفاقها منذ

فضر به برجله وقال قم ياسواد بن قارب فاسمع مقالي واعقل ان كنت تمقل
انه قد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من لؤي بن غالب يدعو الى الله
عز وجل والى عبادته ثم انشأ يقول

عجبت للجن وتطالبا وشدها العيس باقسابها
تهوي الى مكة تبغى الهدى ما صادق الجن ككذابها
فارحل الى الصفوة من هاشم ليس قدماها كاذابها

ثم لما كانت الليلة الثانية جاء فمعل معه كالاو وانشده مثل هذا الشعر
وكذلك فعل في الثالثة فسار سواد الى مكة للايمان به صلى الله عليه وسلم ثم
قال يا رسول الله قد قلت شعراً فاسمعه فقال هات فانشد

اتاني ربي مخبراً بعد هجعة ولم يك فيما قد تلاه بكاذب
ثلاث ليال قوله كل ليلة اتاك رسول من لؤي بن غالب
فشمرت من ذيل الازار ووسطت بي الذعاب الوجناء بين السباب
فاشهد ان الله لارب غيره وانك مأمون على كل غائب
وانك ادنى المرسلين وسيلة الى الله يا ابن الاكرمين الاطايب
فرنا بما يأتيك ياخير مرسل وان كان فيما جاء شيب الذوائب
وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعة سواك بمن عن سواد بن قارب
ومما ينسب الى ابليس ابن الجن هذان البيتان المشهوران ورأيت بعضهم
يرويهما لابن المعتز ورأيتهما لغيره ايضاً والله اعلم

وحراء قبل المزج صفراء بعده بدت بين ثوبي نرجس وشقائق
حكمت وجنة المعشوق صرفاً ففساها عليها مزاجاً فاكتست لون عاشق
اما ما سمع من جوف الاصنام فقد ورد ان نفراً من قريش منهم ورقة

ابن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل كانوا يجتمعون الى صنم فدخلوا عليه ليلة
مولد رسول الله (صاعم) فأروه مكباً على وجهه فانكروا ذلك فاخذوه فردوه
كالذي كان فانقلب انقلاباً عنيماً فردوه فانقلب الثالثة فقالوا ان هذا لامر
حدث ثم انشد بعضهم ابياتاً يخاطب بها الصنم ويتمجب من امره ويسأله
عن سبب تنكسه فسمع هاتف من جوف الصنم يقول بصوت جهير
تردى لمولود اضاءت بنوره جميع فجاء الارض شرقاً ومغرباً
ومثله ما حكاه وائل بن حجر قال كان لي صنم فينا انا نأثم في الظهيرة اذ سمعت
صوتاً منكراً من الخدع الذي به الصنم فاتيته فسجدت بين يديه فاذا
قائل يقول

واعجبا لوائل بن حجر يخال يدري وهو ليس يدري
ماذا يرجي من نحيب صخر ليس بذئ عرف ولا ذي نكر
ولا بذئ نفع ولا ذي ضر لو كان ذائب اطاع أمري
قال فقلت أسمعتم ايها الهاتف الناصح فاذا تأمر من قال

ارحل الى يثرب ذات النخل وسر اليها سير مشمعل
فدنف بدن الصائم المصلي محمد النبي خير الرسل
وحدث بعض الصحابة رضوان الله عليهم اجمعين قال خرجت في طلب
ابل لي فادركتها ثم اردت النوم وكنا اذا نزلنا بواد قلنا نعوذ بعزير هذا
الوادي فتوسدت ركبتي ناقتي واستعذت فاذا هاتف يقول

ويحك عند بالله ذي الجلال ميين الحرام والحلال
ووحده الله ولا تبال ما كيد ذي الجن من الاحوال
اذ تذكر الله على الاحوال وفي سهول الارض والجبال

قد صار كيد الجن في سفال

قال فقلت له

يا ايها القائل ما تقول أرشد ذلك أم تضليل

فقال

جاء رسول الله ذو الخيرات جاء سياسين وحاميات

وسور بعد مفصلات بأمر بالصلاة والزكاة

ويزجر الاقوام عن هنات اصبحن في الاسلام منكرات

ولما خفي امر النبي (صلم) عند هجرته الى يثرب هو وابو بكر

الصديق رضى الله عنه واختلفت الظنون في شأنهما سمعوا قائلاً يقول هذه

الآيات

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين حلاّ خيمتي ام معبد

هما نزلا بالبر ثم ترحلا فأفلح من امسى رفيق محمد

فيالقصي ما زوى الله عنكم به من فعال لا يجارى وسوءدد

ليهن بني كعب مكان فتاتهم ومقعدها للمؤمنين بمصردد

سلوا اختكم عن شاتها واناثها وانكم ان تسألوا الشاة تشهد

دعاهما بشاة حائل فتحلبت له بصرح ضرة الشاة مزبد

فغادرها رهنا لديها لحالب يرددها في مصدر بعد مورد

فلما بلغت اهل المدينة من الانصار قال حسان وهي القطعة التي سبقت

الاشارة اليها

لقد خاب قديم زال عنهم نبيهم وقدس من يسري اليه ويقتدي

ترحل عن قوم فضلت عقولهم وحل على قوم بنور مجد

هداهم به بعد الضلالة ربهم وارشدهم من يتبع الحق يرشد

وهل يستوي ضلال قوم تسفوها عني وهداة يهتدون بمهتد

لقد نزلت منه على اهل يثرب ركاب هدى حلت عليهم باسعد

نبي يرى ما لا يرى الناس حوله ويتلو كتاب الله في كل مشهد

وان قال في يوم مقالة غائب فتصديقها في اليوم اوفى ضحى الغد

واذ قد اوردنا تلك المقدمات واقننا عليها هذه الشواهد البينات

فلا بد لنا من استخلاص نتيجة تكون القول الفصل في الحكم على الشعر

والشعراء فلا تترك وراءها مضطرباً لحاظ ولا معتسفاً لحائر وما هذه النتيجة

ونراها ظاهرة في ثنيات القول واضحة على اسارير الحديث الا تقدير وجوب

اعتبار الشعب كلاماً صالحه صالح لا حرج على قائله وفاسده فاسد لا فضل

لناظمه ولا اعتذار عن مساوئه ولا احالة لذنوبه اما القول عن الصالح فانا قد

رأينا وسمعنا فوق ما قدمنا كثيرين من ذوي الحاجات يتوسلون بالآيات

من الشعر الى الله تعالى والى رسوله و كبار الال والصحب في حاجاتهم

فتقضى ومهماتهم فتكنى فهو اذن لا يخرج عن حكم اخريات الوسائل الصالحة

والدعوات المباركة وكمن طائف بالكعبة متعلق باستارها جعل الشعر وسيلته

عندها فنال بغيته واصاب حاجته ثم انصرف لامفندا ولا ملوماً ولا مؤنباً

ولا مذموماً وهذه البردة الشريفة وهي القصيدة المشهورة بين ايدينا قد جمعت

من البركات والاسرار ما ظهرت دلالة وقامت شواهد . حسدثي سيدي

ووالدي حسن بن عبد الله منيف اطال الله حياته وادام علي مرضاته قال

كنت في ايام حدائتي شديد الاعتداد بالبردة الشريفة حسن الاعتقاد فيها

كثير التلاوة لها فلهمت تكرار هذا البيت

ياسيد الرسل مالي من الود به سواك عند حلول الحادث العرم
قال فكنت لا افتر عن ذكره ولقد اكون مشتغلا بالمهمات من شؤوني
ثم لا ينقطع من لساني وكنت اذا استيقظت من النوم اخبرت اني كنت
ارده نائماً فاشرق بسر هذا البيت ضميري وحصل لي بيركته اتصال عجيب
واصابني خير كثير بسببه فعليك يا ولدي بهذه القصيدة المباركة واذا سر
ان يفتح الله لك احسن الفتح ويمدك بروحانية نبيه الاعظم صلى الله عليه
وسلم فاعمل فكرك في تشطيرها واعلم ان هذه امنيتي التي ان حققتها اقررت
عيني بالجمع بين المني وبينني وقد تلقيت هذه الوصاة الشريفة بالقبول والعمل
فحفظت القصيدة عن ظهر قلب واجازني سيدي الوالد على حفظها وواظبت
على تلاوتها واني الآن في تشطيرها وكثير من الشعر غير هذه القصيدة
المباركة قد ضمن من البركة ما انتفع به الكثيرون اذن صح ان للشعر حكم
باقي الكلام في الشرف والضممة والجواز والمنع لا يمتاز عنه الا بالوزن والوزن
وحده لا يكفي للحكم عليه بالخطا او الاباحة بلى هو يرفع رتبته ويشرف
مكانته ويكسبه تأثيراً على النفس وحسن موقع فيها ويعينه على تملك عواطفها
واقتياد ملكاتها فيتصرف فيها ادق تصرف وينزع بها اذا شاء الى غير طباعها
المألوفة وسجاياها المعروفة رأت بذلك وحشة او وجدت الماء او اصاب
مكروها لم تكن لتغشى موطنه لولا هذا القائد القوي والدافع الشديد ترى
اللحز البخيل اذا رماه الشاعر بالرقية من جيد شعره استحلال بخله سماحة
وجوداً فيهز اهتزاز السمح الجواد وتسيل كفه بالنوال ولا كسيل المهاد
فتخاله المقصود بقول الاول

تراه اذا ما جئته متبالا كأنك تعطيه الذي انت سائله

وربما كان ألام مما قيل فيه
يقتر عيسى على نفسه وليس بباقي ولا خال
ولو يستطيع لتقثيره تنفس من منخر واحد
او كان كالخطيئة وما ذكر البخل واللوم الا ذكرناه قالوا اني الخطيئة
رجل وهو في غم له فقال يا صاحب النعم السلام عليك فرفع الخطيئة العصا
وقال انها عجرا من سلم فقال الرجل اني ضيف فقال للضيفان اعدتها فاعاد
السلام فقال ان شئت قت بها اليك قالوا ومر به بن حمامة وهو جالس
بفناء بيته فقال السلام عليكم فقال قد قلت مالا ينكر فقال خرجت من عند
اهلي بنير زاد قال ماضمت لاهلك قراك قال افتأذن لي ان آتي ظل بيتك
فقال دونك الجبل ينفى عليك قال انا ابن حمامة قال انصرف وكن ابن اي
طائر شئت روي هذا عن ابي الاسود الدثلي وعجيب للخطيئة كيف يكون
ذلك شأنه من البخل وهو الشاعر الذي اغرق في شأن الكرم والكرام وذم
اللوم والاثام ولقد يحار المرء اذا علم ان صاحب هذا الحديث هو ذلك القائل
من يفعل الخير لا يعدم جوائزه لا يذهب العرف بين الله والناس
ولكن لا عجب ولا حيرة فهو من الذين يقولون مالا يفعلون كذلك
قال ابن هرمة الشاعر المفلح البليغ عن نفسه وهو بمكان الخطيئة من البخل
والكذب وستعلم ذلك من اخباره فمن شعره قوله
اغشى الطريق بقبتي ورواقها واحل في قلل الربي واقيم
ان امرأ جعل الطريق لبيته طنباً وانكر حقنه للثيم
ومن قوله ايضاً ولا اخالك الا معجباً بسماحته مثنياً على كرم نفسه
وجود راحته

ومستنج تستكشط الريح ثوبه ليسقط عنه وهو بالرمل معصم
عوى في سواد الليل بعد اغتساقه لينج كلب او ليفزع نوم
فجاوبه مستسمع الصوت للقرى له عند اتيان الملبين مطعم
يكاد اذا ما ابصر الضيف مقبلا يكلمه من حبه وهو اعجم
قال رجل اتيناه في جماعة من قریش وقد احببنا ان يتنزه عندنا ومشينا
بزاد كثير فخرج علينا وقال ماجاء بكم قلنا شعرك حيث قلت (ان امرءا جعل
الطريق البيتين) وقولك ايضا

واذا تنور راكب مستنج نبحت فدلته علي كلابي
وعوين يستعجلنه فلقينه يضربه بشراسف الاذنان
وسمعناك تقول

كم ناقة قد رجأت منخرها بمستهل الشؤبوب او جل
لا امتع العود بالنصال ولا ابتاع الا قريسة الاجل

فنظر الينا وقال ما على وجه الارض عصابة اسخف عقولا منكم اما سمعتم
قول الله عز وجل وانهم يقولون ما لا يفعلون والله اني لا قول ما لا افعل
وانتم تريدون ان افعل ما اقول والله لا اغضب ربي في رضاكم فضحكنا منه
واخرجنه معنا يتنزه حتى فني الزاد اه

اقول وما اقر به الى المغفرة اذا هو اغضب ربه على زعمه فصديق في
قوله وانجح آلميه وما كان الله ليغضب على رجل دعا الناس الى معروفه بشعر
طيره وتقول سيره حتى اذا جاؤوه صدقهم ما قال وانهم ما امسوا فعدوا
يحمدونه واثنوا بمدحونه

(رجم ما انقطع) قلنا ان الشعر يستقيم النفوس الى نقائص سجاياها

واضداد طباعها فهو كما يمتري كف الضنين ويحل عرى مال البخيل كذلك
هو يطير بالجان الى ما زم القتال حيث يرى مساقط الالجال متكنفا بروائع
الاهوال فترى الهياة الفرق اذا قرعت سمعه القافية بعثت في نفسه الحماسة
واذكت في صدره جذوة الحمية فخف الى حيث يرى الخلف مكشرا عن انايه
والموت مبديا عن خضابه ينصب صدره لصدور الردينيات يراها كأشطان
القلوب فلا يبالي ان تنوشه ويمد وتينه حيث مواقع المشرقيات يحسبها البروق
الموامع فلا يهاب ان تناله فلو انك سئلت عنه لقلت ما انبئكم عن رجل شهدته
وقد افتتح الزحوف واخترق الصفوف

وثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت اخمصك الحشر
ثم استرسلت تصفه وصف من لو تمثل له شخص المنون لطفه في
الاول كما يقول الداهية العبسي وهو لولا تلك النفاية اظل كصاحب هند اذ
تقول

قامت تشجعي هند فقلت لها ان الشجاعة مقرون بها العطب
يا هند لا والذي حجب الحجب له لا يشتهي الموت عندي من له ادب
ولما فتى كذاك الذي علم ان ليس له غير رأسه راس فقصى اميره وقال
حين جد به المراس

يقول لي الامير بغير علم تقدم حين جد بنا المراس
ومالي ان اطعتك من حياة ومالي غير هذا الراس راس
او لكان كالذي خاف على فخارته ان تحطم فقرر ولو علم انه يتناع في

السوق مثلها ما بالي ان يتقدم

الا لاتلمني ان فررت فاني اخاف على فخارتي ان تحطما
فلو انني ابتاع في السوق مثلهما وجدك ما باليت ان اتقدما
(ستأتي البقية)
احمد محرم



— قول لبعض الناس —

﴿ في المآتم والاعراس ﴾

٩

صحا القلم من سكرته واستيقظ من رقده آسفاً لظروف عاقته
عن خدمه الادب حزناً بدواع اخرته عن القيام بما وجب مندهشاً لما
سكن الليل والنهار من عجائب القضاء وغرائب الاقدار
وعند الشروع في الغيبة بسرعة الاوبه ليم في اليوم ما ابتداء
بالامس وليقضي من شؤن الحديث وشجونه حاجة في النفس فكراً
عليه الجديدان بما لم يكن في الحسبان وغار عليه الدهر بما يشيب به
الرأس وينحي له الظهر ولكن ما للقراء الكرام ولهذا الكلام فهو كما
يقولون من الخصوصيات والانصاف لمثله معدود عند البعض من المحرمات
فأولى للقلم ان يقتصر على الاشارة لعذره وأجدر به ان لا يساجي
غير الحكيم الاعلى بتفصيل امره ثم ليعد الى نشر ما اخذ على عهدته جرياً
على سالف عهده وسابق خدمته وليخرج من باب تلك النصائح الى غيره

من سبل التهذيب والنصائح لينظر القوم ان كنا فيما اسلفناه فقط مقصرين
او نحن في غير ذلك ايضاً محلقيين ومقصرين ولكن قبل ان يبرح هذه
الدار وقبل ان تنطفئ تلك النار لا بد له من الاشارة الى امر عظيم
والتنبيه على خطأ في تصرفات القوم جسيم

يقضى على الانسان في سفره لا نقضاء اجله ووفاء عمره فينهض من
عشيرته من يكذب ويجد لاستحضار جثته ويلتمس لذلك الاعانة من
ذوي الجاه والمكانه وينفق من اجله الدرهم والدينار للطبيب والحداد
والنجار كل هذا كما يزعمون ليضموا القرع الى اصله وليجمعوا في صعيد
واحد آل البيت كله

توفي عظيم من عظماء مصر على ظهر سفينة في وسط البحر فانفذ
فيه الربان امره وجعل سعة اللجة للجنة عوضاً عن ضيق القبر فقام آل
المتوفى يطلبونها بما تصل اليه ايديهم وتوسلوا لامنيتهم هذه باصدقائهم
واعادتهم وهجروا لاجلها المضاجع والبيوت وتربصوا نبي الله يونس
ليخرج من بطن الحوت ولكن خابت في التيار آمالهم فرجعوا من حيث
اتوا وقد حبطت اعمالهم

*
* *

فياليت شعري ما الذي بعث هؤلاء لامثال تلك المساعي الحرقاء
ينحشون ان المتوفى يبعده الله عن رحمته اذا لم يدفن في تربة بلدته ام
يظنون ان الله لا يختص بكرامته الا من دفن بجانب قرابته ام يضمنون
على الحيتان بما يجودون به على الديدان
مهلا يا قوم فالملك كله لله وستقبض على نواصي الجميع يداه ويحشر